مجلة الشرق الأوسط للنشر العلمي
المجلد (٨) العدد (٢)
الإصدار السادس والعشرون
(١-١١) ٢٠٢٥

استخراج اللؤلؤ في الخليج العربي خلال العصور الإسلامية: أدوات الغوص ووظائفها، وأحوال الغواصين الاجتماعية

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

محمد يوسف ويبيسونو

غسان الشايب

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٦ مايو ٢٠٢٥م

الملخص

يغوص هذا البحث في أعماق تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية، ويفتش في عمل يعد من أهم المصادر الحياتية به وهو استخراج اللؤلؤ. ويركز هذا البحث في الأدوات المستعملة في رحلة استخراج اللؤلؤ ووظيفتها، ودراسة الأحوال الاجتماعية للغواصين، معتمدين على المنهج التاريخي في جمع مروياته، والمنهج التحليلي في دراستها، مشيرين للجوانب الحضارية المتعلقة بها. وتبين هذه الورقات البحثية كيفية استخدام أهل الخليج العربي للوسائل المتاحة لهم في تلك الأزمنة لصناعة الأدوات اللازمة لاستخراج اللؤلؤ "فالحاجة أم الاختراع"، كذلك المكانة الرمزية للغواص وصلتها بحالته الاجتماعية. ويتضح من خلالها أهمية البحث في مغاصات تاريخ الخليج العربي، ومنها مغاصة الحالة الاجتماعية للمرأة الخليجية.

الكلمات المفتاحية: الغوص، اللؤلؤ، الخليج العربي، الأحوال الاجتماعية، الأدوات، العصور الإسلامية.

Abstract

This research dives deep into the history of the Arabian Gulf in Islamic times and examines one of the most important sources of life in the Arabian Gulf: pearl extraction. This research focuses on the tools used in the pearl extraction journey and their function, as well as the social conditions of the divers involved in the extraction process, relying on the historical method in collecting its narratives and the analytical method in studying them. These research papers show how the people of the Arabian Gulf used the

means available to them in those times to make the necessary tools for pearl extraction, as well as the symbolic status of the diver and the extent of its impact on his social status. The importance of diving into the history of the Arabian Gulf, including the social status of Gulf women
keywords: Diving, Pearl, The Arabian Gulf, The Social Conditions, Tools, Islamic Times.

*** المقدمة**

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه أما بعد، فإن تاريخ الخليج العربي مورد غزير للبحث والدراسة، فهو كالبحر الذي حوى في أعماقه جواهر ودررا تتطلع لغواصين يحسنون استخراجها، واستخدام الأدوات المناسبة لها. ومن تلك الجواهر التي اهتم بها جماعة من الباحثين والكتاب الغوص عن اللؤلؤ في الخليج العربي، فكتبت فيه البحوث والمقالات، وجمعت فيه المعاجم والموسوعات، وغاص الدارسون لأعماق مختلفة من تاريخه، وبحثوا مجالات متنوعة تتعلق به من الثقافة والاقتصاد وغيرها من المجالات، وبقيت مغاصات[1] كثيرة لم يصلوا إليها–فيما نعلم–، مثل أحوال الغواصين الاجتماعية، وأدوات استخراجهم للؤلؤ في العصور الإسلامية.

*** أهمية الدراسة**

لهذا البحث أهمية كبرى في دراسة تاريخ الخليج العربي وحضارته، ويتبين ذلك من خلال: –

١– مكانة استخراج اللؤلؤ في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الخليج العربي منذ القدم وخاصة في التاريخ الإسلامي.

٢– دراسة الأحوال الاجتماعية للغواصين وأثر صنعتهم عليهم في تلك الحقب.

٣– معرفة الأدوات المستخدمة في استخراج اللؤلؤ في العصور الإسلامية، وكيفية استثمار فريق الغوص لبيئتهم في صناعتها.

*** أسباب اختيار الدراسة**

أثناء اهتمام الباحثين بدراسة تاريخ الخليج العربي لفت انتباههما هذا الموضوع لعدة أسباب منها: –

١– صلته الوثيقة بالتاريخ والحضارة الإسلامية مما يتيح للباحثين المساهمة في خدمتهما.

٢– عدم وجود دراسة مركزة ووافية لهذه الموضوع–بحسب اطلاعهما–بالرغم من البحوث التي تناولت تاريخ الغوص عن اللؤلؤ في الخليج العربي، وعامتها في التاريخ الحديث.

٣– ربط السابق باللاحق والتعرف على كيفية تطور هذه الصنعة عبر التاريخ، من خلال أحوال الغواصين الاجتماعية والأدوات المستخدمة لذلك.

*** الدراسات السابقة**

يمكن تقسيم الدراسات السابقة إلى قسمين: دراسات عامة ودراسات خاصة.

*** الدراسات العامة**

هي الدراسات التي تناولت تاريخ الخليج العربي بصفة عامة و لم تتخصص في دراسة الغوص واللؤلؤ ولكنه من موضوعاتها.

[1] مغاصات جمع مغاصة وهي محل الغوص ومكان تجمع أصداف اللؤلؤ. البيروني، الجماهر، ص٧.

١- محمد أرشيد العقيلي، الخليج العربي في العصور الإسلامية منذ فجر الإسلام حتى مطلع العصور الحديثة، دار الفكر العربي، بيروت.

٢- محمد متولي، حوض الخليج العربي، ط:١، ١٩٧٤، مكتبة الأنجلو المصرية.

٣- محمد متولي-محمود أبو العلا، جغرافية الخليج، ط:٣، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، مكتبة الفلاح، كويت.

*** الدراسات الخاصة**

هي الدراسات التي اهتمت بالغوص عن اللؤلؤ من نواحي متعددة تاريخيا واقتصاديا واجتماعيا: -

١- عبد الله يوسف الغنيم، الغوص على اللؤلؤ في المصادر العربية القديمة، دار ذات السلاسل، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، الكويت.

٢- سيف مرزوق الشملان، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي، دار ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٩م،.

٣- عمر بن صالح العمري، الغوص واللؤلؤ في الخليج: مقوماته-رحلته-تجارته-وأثره: دراسة تاريخية، ط:١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، مطابع الحميضي، الرياض.

٤- فالح حنظل، معجم الغوص واللؤلؤ في الخليج العربي، مؤسسة دار الفكر الجديدة، أبو ظبي.

٥- مصطفى عزت هبرة، موسوعة الغوص واللؤلؤ في مجتمع الإمارات والخليج العربي قبل النفط، مطبعة الإمارات، رأس الخيمة، ٢٠٠٤م، ٢ج.

*** أدوات استخراج اللؤلؤ في الخليج العربي خلال العصور الإسلامية**

شهد الخليج العربي ازدهارًا ملحوظًا في الأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالموارد البحرية عبر العصور الإسلامية وخاصة استخراج اللؤلؤ، إذ كانت هذه المهنة تعد أهم مصادر العيش لسكان الخليج العربي، وارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالتراث الثقافي والاجتماعي للمنطقة. وقد استُخدمت مجموعة متنوعة من الأدوات والتقنيات في عملية استخراج اللؤلؤ من أعماق البحر. وتعرض هذه الدراسة تلك الأدوات وطرق استخدامها في المراحل المختلفة، بداية من الخروج للغوص إلى تهيئة اللؤلؤ للبيع، ذلك أن استخراج اللؤلؤ يتطلب فريقا متكاملا للعمل ويتم في ظروف معينة.

*** موسم استخراج اللؤلؤ وفريق العمل وتجهيزاته**

تعتمد رحلات الغوص للبحث عن اللؤلؤ على ظروف محددة، أولها وجهة الغوص وهي الأماكن التي تتجمع فيها الأصداف وتسمى "المغاصات" أو"الهيرات"[٢]. وثانيها الظروف الطبيعية التي تتهيأ في أزمنة معينة للتمكن من استخراج اللؤلؤ وأهمها: -

١- نمو الأصداف التي تحتوي على اللؤلؤ.

(٢) ينظر: عبد الله يوسف الغنيم، الغوص على اللؤلؤ في المصادر العربية القديمة، دار ذات السلاسل، الكويت، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، ص٤٩-ص٥٧؛ مصطفى عزت هبرة، موسوعة الغوص واللؤلؤ في مجتمع الإمارات والخليج العربي قبل النفط، مطبعة الإمارات، رأس الخيمة، ٢٠٠٤م، ج١ ص٢٤٩-٣١٩.

٢- الأحوال الجوية التي توفر الظروف المناسبة لتجمع الأصداف وتمكن الغواصين من استخراجها.

ولذلك يكون للغوص عن اللؤلؤ موسم محدد في السنة يعرف باسم "موسم الغوص"[٣]، ويبدأ عادة في الخليج العربي من أول شهر نيسان -أبريل-[٤] إلى آخر شهر أيلول- سبتمبر- أي حوالي ستة أشهر، وما عدا ذلك من شهور السنة فلا غَوْصَ فيها[٥].

وقبيل موسم الغوص يستعد الغواصون له من خلال تجهيز فريق للعمل، وتهيئة الأدوات اللازمة[٦]، كذلك يتجمع التجار من بلاد مختلفة في المدن المشهورة بالغواصين في الخليج العربي، فيتم إبرام اتفاقيات بين التجار والغواصين وفريق عملهم، تحدد فيها الأجور وعدد المرافقين ومتطلبات الرحلة من الطعام والشراب وغير ذلك [٧]، وبين الاتفاق المبرم بين التاجر والغواص علاقة وثيقة تتأثر بالأدوات المتوفرة التي تحدد كمية وجودة اللؤلؤ المستخرج، كذلك تؤثر هذه الاتفاقية في الأحوال الاجتماعية للغواصين وفريقهم.

ويتكون فريق استخراج اللؤلؤ في كل مركب بين ستة إلى اثنا عشر رجلا[٨]وهم: -

التاجر وهو "الآمر أجراءه بالغوص، القيم بالأمر دون الغواص" "ونسبة الغوص إلى التاجر كنسبة الزراعة إلى رب الضيعة"[٩]. فهو الذي يكون فريق الغوص ويقوم على شؤونه ويموله منذ خروجهم في رحلة البحث عن اللؤلؤ إلى عودتهم، وقد يخرج بدلا عنه أمين له[١٠].

رئيس الغواصين وهو الذي يتولى قيادة عملية الغوص ومهمة استخراج اللؤلؤ[١١]، ولا يكون كذلك حتى يمتلك الخبرة الكافية في الغوص والبحث عن اللؤلؤ.

معاون الغواص ويسمى "المصفي" ويسميه المتأخرون "السِّيب"[١٢] وأجرته بحسب خدمته، وهي أقل من أجرة الغطاس[١٣]، ويسمى أيضا الزوج أو الرفيق وربما تقاض أجره كل أسبوع في يوم الجمعة[١٤]. ومن مهامه إمساك الحبل المربوط بالحجر أثناء نزول الغواص وهو واقف عليه، كذلك سحب المشناة التي يجمع فيها الصدف إذا امتلأت ثم ردها للغواص، كذلك شق الصدف بعد جمعه أثناء راحة الغواصين،

---

(٣) ينظر: هبرة، موسوعة الغوص واللؤلؤ ، ج١ ص٣٢١-ص٣٥٢.
٤ الزهري، الجغرافية، ص26
٥ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١ ص١٦٨
(٦) الإدريسي، محمد بن عبد الله بن إدريس الطالبي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٩ه/ ١٩٨٨م، ج١، ص٣٨٨.
(٧) ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٣٨٧.
(٨) البروني، أبو ريحان محمد بن أحمد، الجماهر في معرفة الجواهر، عالم الكتاب، بيروت، ص١٤٧.
(٩) البروني، الجماهر في معرفة الجواهر، ص١٣١.
(١٠) البروني، الجماهر، ص١٤٧/١٤٩
(١١) ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٣٨٧.
(١٢) السيب بكسر السين وإمالة الياء ثم باء ساكنة، وهو البحار الذي يمسك حبل الإنقاذ، وتربطه بالغواص علاقة وثيقة ضربت به الأمثال. الغنيم، الغوص عن اللؤلؤ، ص٤٩ حنظل، معجم الغوص، ص٢٠٧-٢٠٨.
(١٣) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٣٨٨.
(١٤) البيروني، الجماهر، ص١٤٧.

وعده للؤلؤ وكتابة ذلك مع التاجر الذي استأجر الفريق، ويوضع اللؤلؤ في صرة مختومة عليها اسم التاجر[١٥].

الدليل وهو الذي يقود المراكب وله معرفة دقيقة بالمغاصات، فتكون المراكب خلفه صفوفا، وكلما مر بإحدى المغاصات التي يعرفها نزل إليها يستكشف كمية الصدف، فإن وجد ما يرضيه خرج وأمر بإرساء المراكب[١٦].

*** الأدوات المستخدمة لاستخراج اللؤلؤ**

١- "الدونج" وهو المركب الذي يستقله فريق الغوص، ويصنع هذا الدونج كغيره من المراكب من الخشب المتين، وهو أكبر من الزورق[١٧] ليتمكن من حمل عدد كاف من فريق العمل وأدواتهم وطعامهم وشرابهم، ويحمل ما بين ستة إلى اثنا عشر شخصا[١٨]. وبالنظر لطول مكث الغواصين في البحر بحثا عن اللؤلؤ كما تقدم وهي مدة تصل إلى عدة أشهر يتبين متانة الدونج وقدرته على تحمل الأثقال التي عليه، ومواجهة تيارات البحر، والحيوانات البحرية التي تعترض طريقه وتلتصق به.

٢- "الحجر الثقيل" أو "حجر الغوص" ويُصنع هذا الحجر عادة من مواد طبيعية مثل الصخور الملساء وربما صنعه المتأخرون من الرصاص[١٩]، ويكون لونه في الغالب أسود لإخافة الحيوانات المفترسة مثل القرش فيما كانوا يعتقدون[٢٠]. ويتراوح وزنه بين ربع إلى نصف قنطار-أي بين خمسة وعشرين إلى خمسين كيلو جرام تقريبا-. ويوفر هذا الحجر التوازن المثالي الذي يحتاجه الغواص للنزول إلى قاع البحر دون الحاجة إلى بذل مجهود كبير، ويسمى الغوص به " الغوص الحجاري"[٢١]. ويُستخدم الحجر من خلال تثبيته بحبل "رقيق وثيق"[٢٢]، ويسميه المتأخرون "حبل الزين"[٢٣]، ويدلي المعاون الحجر في الماء وهو ممسك بالحبل ليترل الغواص به وهو واقف عليه، ثم يسدله ليغوص في قاع البحر بسهولة، وذلك لقدرة الحجر الثقيل على التغلب على تيار الماء. ثم تبدأ عملية البحث عن الصدف، وأثناء ذلك كله لا يترك الغواص الحبل المربوط في الحجر، فإذا غم صعد مع الحبل ليسترد نفسه ثم يرجع للقاع من جديد وهو ممسك به[٢٤]. وهو ما يجعل الحجر الثقيل أداة لا غنى عنها لتحقيق التوازن بين السرعة والكفاءة في عملية استخراج اللؤلؤ. واما لدى المتأخرين من الغواصين فإنهم يتركون الحجر بمجرد وصولهم إلى القاع، لأنهم مربوطون

---

(١٥) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٣٨٩-٣٩٠، وينظر تعريف الأدوات في محله.
(١٦) نزهة المشتاق ج١ ص٣٨٨.
(١٧) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، ص٣٨٨.
(١٨) البيروني، الجماهر، ص١٤٨.
(١٩) حنظل، معجم الغوص، ص١٢٧هبرة، موسوع الغوص، ج١ ص٣٦٠، العمري، الغوص واللؤلؤ في الخليج، ص٦٨؛ ذكر حنظل وتبعه هبرة أن وزنها عشرة أرطال وقال العمري بناء على ذلك ان وزنها خمسة كيلوجرام، وهذا لا يتناسب مع كون الحجر ثقيلا وقادرا على تثبيت الغواص.
(٢٠) البيروني، الجماهر، ص١٤٦.
(٢١) حنظل، معجم الغوص، ص١٢٨.
(٢٢) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٣٨٨.
(٢٣) حنظل، معجم الغوص، ص١٢٨.
(٢٤) البيروني، الجماهر، ص١٤٦؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٣٨٨، ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، ط١، أكاديمية المملكة المغريبية، الرباط، ١٤١٧ه/ ١٩٩٧م، ج١، ص١٢٩-١٣٠. فالح حنظل، معجم الغوص واللؤلؤ في الخليج العربي، مؤسسة دار الفكر الجديدة، أبو ظبي، ص١٢٧،هبرة، موسوعة الغوص، ج١ ص٣٦٠-٣٦١.

بحبل الطوارئ، وهو حبل إنقاذ سيأتي ذكره ليستعمل الحجر غواص آخر. ويبرز هذا الحجر البراعة والابتكار في تصميم أدوات الغوص، على الرغم من الإمكانيات المحدودة في ذلك الزمن. ويعكس استخدام هذه الأداة فهمًا عميقًا للبيئة البحرية، حيث ساعد الغواصين على استغلال الوقت القصير المتاح لهم تحت الماء بفعالية كبيرة، مع ضمان عودتهم سالمين إلى السطح.

٣- حبل الطوارئ وهو غير الحبل الذي يتصل بالحجر الثقيل، فهذا حبل يربط به الغواص نفسه ليسحبه به مساعده عند الطوارئ[٢٥]، ويسميه المتأخرون حبل "اليدا"[٢٦].

٤- السكين وهو من الأدوات الأساسية المستخدمة في عملية استخراج اللؤلؤ سواء عند جمع الصدف من قبل الغواصين [٢٧] فلعبت دورًا بالغ الأهمية في تمكين الغواصين من الوصول إلى صدف اللؤلؤ الذي يلتصق بالصخور أو يستقر بين الرمال في قاع البحر. وتصنع السكين غالبًا من الحديد لتكون مناسبة لبيئة الغوص تحت الماء، وحادة لتسهيل عملية اقتلاع الصدف، وتستخدم السكين أيضا من قبل المعاونين في فتح الصدف[٢٨]، وتسمى لدى المتأخرين ب"المفلقة"[٢٩]، أو تستخدم في صقل اللؤلؤ[٣٠].

واستخدام السكين يتطلب دقة وحذرًا كبيرين، تُمكن الغواص من المحافظة على جودة اللؤلؤ داخل الصدف، وهو الهدف الرئيسي من العملية. وتُظهر السكين براعة الغواصين في استغلال أدوات بسيطة لكنها فعالة لزيادة الإنتاجية خلال كل رحلة غوص.

٥- المِشنة[٣١]أو المخلاة[٣٢] أو كما يسميها المتأخرون المزماة[٣٣] أو العاروك[٣٤] أو الديين[٣٥]يعلقها الغواص في عنقه ويضع فيها الصدف الذي يجمعه[٣٦]، ويتميز هذا الكيس بأنه مصنوع من الخوص أو القماش المتين أو الشبك القوي لتتحمل التيارات المائية ووزن الأصداف التي تجمع فيها.

---

[٢٥] ابن بطوطة، الرحلة، ج٢ ص١٤٩-ص١٥٠.
[٢٦] حنظل، معجم الغوص، ص١٢٨-١٢٩.
[٢٧] الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٣٨٨، ابن بطوطة، الرحلة، ج٢ ص١٥٠.
[٢٨] ابن بطوطة، الرحلة، ج٢، ص١٥٠.
[٢٩] حنظل، معجم الغوص، ص٣٤٠؛ هبرة، موسوعة الغوص، ج١ ص٣٦٤-٣٦٥.
[٣٠] حنظل، معجم الغوص، ص٢٠٢.
[٣١] فيما يبدو ولعل اللفظ حُرّف مع الزمن من مشنة إلى مشناة ثم مزماة، وقد قيل أن أصلها مشمة توضع فيها الأشياء التي تشم ثم أطلقت على ما يحمل فيه الأغراض مما صنع من الخوص. ينظر أبو بكر المالكي، رياض النفوس، ج١، ص٥٢٢. تيمور، احمد بن إسماعيل، المعجم الكبير في الألفاظ العامية، تحقيق: حسين نصار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٢ه/٢٠٠٢م، ج٥، ص٣٦٨-٣٦٩.
[٣٢] البيروني، الجماهر، ص١٤٦؛ ابن بطوطة، الرحلة، ج٢ ص١٥٠.
[٣٣] سلة مصنوعة من الخوص الغليظ تعلق في رقبة الغواص. حنظل، معجم الغوص، ص٣٣٧؛ هبرة، موسوعة الغوص، ج١ ص٣٥٩-٣٦٠.
[٣٤] كيس مصنوع من الخيش يعلق في رقبة الغواص. حنظل، معجم الغوص، ص٢٥٤؛ هبرة، موسوعة الغوص، ج١ ص٣٦٠-٣٦١.
[٣٥] كيس مصنوع من خيوط مشبكة أو قطن تعلق برقبة الغواص. حنظل، معجم الغوص، ص١٦٥-١٥٥؛ هبرة، موسوعة الغوص، ج١ ص٣٥٧-٣٥٨.
[٣٦] ابن بطوطة، الرحلة، ج٢، ص١٥٠.

٦- الخلنجل هو مادة شمعية مميزة تُعد واحدة من الوسائل الابتكارية التي استخدمها الغواصون للحماية أثناء الغوص. يُصنع هذا الخليط من شمع النحل ممزوجًا بزيت السمسم أو ما يُعرف بدهن الشَيرَج[٣٧]، ليشكل مادة مرنة تُوضع في فتحتي الأنف قبل الغوص[٣٨].

ووظيفة الخلنجل الأساسية هي سدّ فتحات الأنف بشكل محكم لمنع دخول الماء أثناء الغوص. ورغم بساطته، يُعتبر الخلنجل من أوائل المحاولات التي شهدتها تلك الفترة لتوفير وسائل حماية تنفسية مبدئية أثناء الغوص، مما يعكس براعة الإنسان في التكيف مع متطلبات بيئته.

٧- الدبل أو الملزام أو الفطام كما هو عند المتأخرين ويكون طوله مقدار أصبع[٣٩] ويصنع من قرن الحيوان كالماعز أو من دبل وهو ظهور السلاحف البحرية أو عاج كالمشقاص يلزم به أنفه[٤٠] ولذلك سمي ملزاما، ولا يكون من الخشب.

وهذه الأداة من أهم أدوات الغوص، ووظيفتها حماية الغواص من دخول الماء في أنفه إذا تسرب من الخلنجل بسبب التيار المائي أو غير ذلك.

٨- القطن المدهون وهو ما يجعل في آذان الغواصين وهو عبارة عن قطن مليء بالدهن، وأثناء الغوص بعصر الغواص من ذلك الدهن اليسير في الماء في قعره، ليضيء له بذلك في البحر ضياء بيناً[٤١].

ووظيفة القطن سد الأذن وحمايتها من تسرب الماء إليها وذلك باستعمال الدهن الذي يسد منافذ القطن، ويستخدم بعد ذلك في إضاءة القاع من خلال لونه الأصفر الذي يعكس ما يصل من النور ليضيء مكان البحث، وهذا من حسن استخدام الأدوات المتاحة في ذلك العصر.

٩- الطلاء الأسود وهو ما يطلي به الغواصون أقدامهم وأسْوَاقَهم خوفاً من بَلع دواب البحر مثل القرش لظنهم بالتجربة أنها تنفر من السواد[٤٢]، وقد تقدم طلاء بعض الأدوات الأخرى بالسواد.

١٠- الغربال ويستخدم بعد انتهاء الغوص، ووظيفته تمييز أحجام اللؤلؤ باستخدام أنواع منه وهي عادة ثلاثة أصناف: الكبير والمتوسط والصغير[٤٣].

١١- آلة التنفس ذكرها البيروني (440ه/1048م) في كتابه الجماهر[٤٤] نقلا عن أحد البغداديين في زمنه، ودورها هو تمكين الغواص من المكوث تحت الماء وقتا طويلا حتى أبلغه أياما. ولا يمكن الجزم بوجودها في الخليج العربي في ذلك الوقت، لأن الحاجة لهذه الآلة متعددة الأطراف فليست مقتصرة على من يستخرج اللؤلؤ، ولكن البيروني ذكرها في ثنايا حديثه عن كيفية الغوص عن اللؤلؤ. وتتكون هذه الآلة من عدة عناصر: -

(٣٧) الشيرج بفتح الشين والراء ليس عربيا فيما ذكره النووي، وقال ابن بري: دهن السمسم هو الشيرج. النووي، تحرير ألفاظ التنبيه، ص٢١١؛ ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص٣٢٠.
(٣٨) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٣٨٩.
(٣٩) هبرة، موسوعة الغوص، ج١، ص٣٥٥.
(٤٠) البيروني، الجماهر، ص١٤٨.
(٤١) المسعودي، مروج الذهب، ج١ ص١٦٩.
(٤٢) المسعودي، مروج الذهب، ج١ ص١٦٩.
(٤٣) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٣٩٠.
(٤٤) البيروني، الجماهر، ص١٤٩-١٥٠.

وعاء الهواء: صنع من جلد شفاف على الأرجح ليمكن من رؤية ما وراءه وربما طلي بالسواد لطرد مفترسات البحر على ما كانوا يظنون[٤٥]، ويدخله الغواص من أعلى إلى أسفل صدره، ويشده شدا وثيقا، ثم يغوص به ويتنفسون ما فيه من هواء.

حجر ثقيل يقاوم ارتفاع جهاز التنفس لامتلائه بالهواء ويترل بالغواص إلى القاع[٤٦].

البربخ[٤٧] وهو أنبوب مصنوع من جلد على هيئة الكم متصل بوعاء التنفس بالشمع والقير أي الزفت ليحكم الاتصال ويمنع تسرب الماء، ويكون طويلا بقدر ما يصل به الغواص من السطح إلى القاع.

الجفنة[٤٨] وهي وعاء مفتوح واسع متصل بالبربخ على السطح، ويعلق بها زِقّ أو زقاق[٤٩] يجعل فيها الهواء لتطفو بها، ويجري النفس بين الغواص والسطح من خلال البربخ ووعاء التنفس.

وقد ذكر الزهري آلة تستخدم في الغوص وهي شبه تابوت مصنوعة من الخشب قاعها واسع ورأسها ضيق على قدر ما يجلس فيها الغائص، ولها كمان من الجلد في أجنابها يخرج منهما الغواص يديه، وهي معلقة بحبل يمسك المساعدون[٥٠]، وقد نقل الغنيم هذه الرواية عن الزهري في بحثه عن الغوص في الخليج العربي وشبهها بالآلة التي ذكرها البيروني[٥١]، وقد وهم من جهتين–والله أعلم– وهما أن الآلة مصنوعة لغرض الحماية لا التنفس، وهي مذكورة في جزيرة من بلاد الصين بعيدة عن الخليج العربي.

* أحوال الغواصين الاجتماعية في العصور الإسلامية

يعد الغوص لاستخراج اللؤلؤ مهنة حياتية في الخليج العربي لفترات طويلة من التاريخ، ومصدر رزق أساسي لأهله، وهو من أبرز نشاطاتهم الاقتصادية[٥٢]. وقد أوجد الغوص نظاما اجتماعيا موحدا لأهل الخليج العربي وإن اختلفت طبقاتهم الاجتماعية[٥٣] وذلك في فكرهم وعلاقتهم فيما بينهم ومسكنهم، وأكلهم، وشربهم، بل وأسقامهم[٥٤]. ويتجلى هذا النظام في الشِّعر عن الغوص على اللؤلؤ في الأدب الجاهلي والإسلامي[٥٥]، إضافة لما تضمنته كتب الجواهر والمعادن أثناء الحديث عن الغوص مثل كتاب "الجماهر في معرفة الجواهر" للبيروني (440ه/1048م)، وكتب البلدانيات والرحلات ومنها كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي (ت

---

(٤٥) ينظر حاشية كتاب الجماهر لمحمد بن الخطيب. البيروني، الجماهر، ص١٤٩-١٥٠.

٤٦ البيروني، الجماهر، ص149-150.

(٤٧) البربخ لغة هو مجرى الماء او البول او كل ما يجري من أعلى إلى أسفل، ولذلك أطلق على هذا الجزء من الآلة لأنه مجرى الهواء من سطح الماء إلى قاعه حيث يتصل بالوعاء. ينظر: الزبيدي، تاج العروس، ج٧، ص٢٣٣.

(٤٨) جفنة وجمعها جفان وجفنات وهي القصعة الكبيرة، الزبيدي، تاج العروس، ج ٣٤، ص٢٥٩.

(٤٩) زق أوجمع القلة أزقاق وجمع الكثرة زقاق هو الوعاءالذي يوضع فيه الماء، ويكون من جلد. ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص١٤٣.

٥٠ الزهري، الجغرافية، ص26

٥١ الغنيم، الغوص على اللؤلؤ، ص44

(٥٢) الغنيم، الغوص على اللؤلؤ، ص٣.

(٥٣) حنظل، معجم الغوص، ص١٠.

(٥٤) حنظل، معجم الغوص، ص١٢-١٣.

(٥٥) الغنيم، الغوص عن اللؤلؤ، ص٧-٢٢.

560ه/1165م) الذي استقى معلوماته من بعثة خاصة عاينت هذا الموضوع وتكفل الادريسي بصياغتها، و"رحلة" ابن بطوطة (ت 779ه/1377م) وهو ممن عاين عملية الغوص ووصفها وصفا دقيقا.

ويمكن الحديث عن الأحوال الاجتماعية للغواصين من خلال ثلاثة مراحل وعلى ثلاث مستويات: –

١– المرحلة الأولى: من التعلم إلى سوق العمل: لكي يكون المرء غواصا فإنه يمر بمرحلة تعليمية شاقة عند الصبى، تنفق فيها أموال للتدريب وعلاج آثاره خاصة في تعلم كتم النفس، لأن أصبر الغواصين تحت الماء أعلاهم أجرة[٥٦]. وهذا يبين دور الوالدين في مرحلة التعليم لإعراض الصبيان عن المهام الصعبة والشاقة عادة، فيبرز دورهما في توجيه وتدريب أبنائهم في مرحلة التعلم وهم من الذكور فيما يبدو من الروايات وما عرف من ثقافة مجتمع الجزيرة في ذلك الوقت. ومما يربط الغواص بمهنته الصلة الوراثية فيحمل الابن عن أبيه حرفته وإن كانت سببا في قضاء نحب والده، وفي ذلك يقول المسيب بن علس: –

قتلت أباه فقال أتبعه**أو أستفيد رغيبة الدهر
نصف النهار الماء غامره**ورفيقه بالغيب لا يدري

٢– مرحلة الثانية العمل واستخراج اللؤلؤ: يعد موسم الغوص شريان حياة لفئات اجتماعية كثيرة في الخليج العربي طيلة فترات من التاريخ، وجعله فالح حنظل ثالث ثلاثة ركائز قام عليها المجتمع الخليجي وهي الإسلام والعروبة وعالم الغوص[٥٧]. وبالرغم من أن المصادر لم تشر –فيما اطلعنا–إلى مظاهر الاحتفال بهذا الموسم، وهو احتفال ممتزج بالفرح والحزن، إلا أن كتب المعاصرين وثقت هذه الاحتفالات المتجذرة في المجتمع[٥٨]، ولذلك يمكن القول بامتدادها في التاريخ كامتداد موسم الغوص.

ولاستخراج اللؤلؤ فريق يمكن تسميته "مجتمع الغوص" يتكون من الغواصين الذين تمكنوا من عبور مرحلة التدريب وما تتطلبه من جهد ومال، كذلك من يتم اختيارهم لتكوين فريق الغوص كالمساعدين والدليل، كذلك التاجر الذي تنسب إليه الفرقة بأكملها. وتنشأ بين أفراد هذا الفريق علاقة وثيقة وذلك لطول صحبتهم في رحلة الغوص الطويلة والخطرة، فيبحرون ويبحثون ويأكلون ويشربون وينامون ويتشاركون الهموم والمخاطر معا طيلة أشهر وفي مكان ضيق وهو الزورق.

وتبدأ الصلة بين هذا الفريق قبل الخروج للغوص، وذلك بالاتفاق بينهم حول عمل كل فرد وأجرته، وبالنسبة للغواصين فإن الأجرة تكون بقدر تفاضل الغوص والأمانة [٥٩]، وهي عادة سداد لدين عليه من أولئك التجار[٦٠].

وبالرغم من دور الغواص المحوري في عملية استخراج اللؤلؤ وما يتعرض له من مخاطر، وما يملكه من مكانة رمزية شبه فيها بالأبطال الذين يشقون طريق الموت في سبيل اللؤلؤ كما قال عمير بن شييم القطامي: –

غواص ماء يمج الزيت منغمسا**إذا الغمورة كانت فوقه قيما

(٥٦) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٣٩١.
(٥٧) حنظل، معجم الغوص، ص٢.
(٥٨) عبد الله الشملان، صناعة الغوص، ص٣٣-٣٥.
(٥٩) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، ص٣٨٨.
(٦٠) ابن بطوطة، الرحلة، ج٢ ص١٥٠.

حتى تناولها والموت كاربه**في جوف ساج سوادي إذا اقتحما

إلا أن الغواصين كانوا يعانون من الديون لمكثهم أشهرا كثيرة من السنة بلا عمل، و لم يمكنهم جمع اللؤلؤ من رفع البؤس والفقر عن أنفسهم وأهليهم، لأن تجارته كانت حكرا على جماعة من أصحاب المال.

وقد يظن الظان إذا سمع قول الأعشى في استخراج اللؤلؤ: –

من نالها نال خلدا لا انقطاع له**وما تمنى فأضحى ناعما أنقا

وقول مخبل السعدي: –

كعقيلة الدر استضاء بها**محراب عرش عزيزها العجم

أغلى بها ثمنا وجاء بها**شخت العظام أكنه سهم

بأن الغواصين نالوا سعادة دائمة بما يقومون به، وإنما هي فرحة مؤقتة ترفع عنه بعض ما هو فيه من حاجة.

وقد يكون الغواص من العجم الذين يستأجرهم التاجر فيما ذكره البيروني أثناء شرحه لبيت نسبه لعنترة: –

إن هي كدرة غواص أطاف بها**صهب السبال جلوها يوم تشريق

فذكر أن الغواص هو التاجر، وصهب السبال هم الأجراء من العجم، ويوم تشريق هو يوم تشريح الصدف[٦١].

وبالرغم من أن الفرس هم أقرب العجم للعرب في الخليج، إلا أن بيت عنترة الذي نقله البيروني–و لم نجد له مصدرا سواه–يشير إلى صفة هؤلاء العجم وأنهم صهب السبال، أي أن فيهم صهوبة في شعورهم وسبالهم وهؤلاء هم الروم[٦٢]، وبذلك يعد هؤلاء الغواصين الذين يقدمون من بلادهم إلى الخليج في موسم الغوص بحسب ما ذكره البيروني منافسين للسكان الأصليين، مما يصعب الأمر على غواصي الخليج العربي، وقد يؤدي ذلك إلا نقص في الأجرة بسبب المنافسة وهو ما يعقد الوضع الاجتماعي، إلا أنه أهل الخليج يظلون هم الأغلبية في هذا المجال نظرا لمعرفتهم بالمغاصات التي تتجمع فيها الأصداف أكثر من غيرهم، وكونهم أهل البلد الأصليين.

* الخاتمة

لقد حاول الباحثان الغوص في التاريخ لاستكشاف أدوات الغوص عن اللؤلؤ خلال فترات من التاريخ الإسلامي ومعرفة وظائفها، والتي أظهرت قدرة سكان الخليج في استغلال الموارد الطبيعية المتاحة لصناعة الأدوات اللازمة لرحلة الغوص عن اللؤلؤ مثل الحجر الثقيل، والسكين، والمشنة، وغيرها من الأدوات والتقنيات. وبسبب الصلة الوثيقة بالعمل البحري تم صنع آلة تنفس تحت الماء في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

كذلك ما يتعلق بأحوال الغواصين الاجتماعية الذين كانوا يعدون أبطالا في أسرهم ومجتمعهم إلا أن أوضاعهم المادية كانت متردية، فاللؤلؤ الذي يبذلون له الجهد والنفس لا يمكث في أيديهم طويلا ولا يجنون منه قيمته الحقيقية، فهم الذين يستخرجون المواد الخام ولا يملكون سبل استغلالها، فيأخذها التاجر ويصل بها إلى أصحاب الجاه والمال وينمي بها ثروته.

ومما لفت انتباه الباحثين عدة موضوعات تتطلب مزيد بحث ودراسة مثل الأحوال الاجتماعية للمرأة الخليجية في التاريخ الإسلامي، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[٦١] البيروني، الجماهر، ص١٤٩.

[٦٢] الفارابي، الصحاح، ج١، ص١٦٦.

*** المراجع**

ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي. (١٩٩٧). رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار). الرباط: أكاديمية المملكة المغربية.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن على. (١٩٩٣). لسان العرب. الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، بيروت: دار صادر.

أبو بكر المالكي (١٩٩٤). رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم. تحقيق بشير البكوش، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

الإدريسي، محمد بن عبد الله بن إدريس الطالبي. (1988). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. بيروت: عالم الكتب.

البيروني، أبو ريحان محمد بن أحمد. (د.ت). الجماهر في معرفة الجواهر. بيروت: عالم الكتاب.

تيمور، احمد بن إسماعيل. (٢٠٠٢). المعجم الكبير في الألففاظ العامية. تحقيق حسين نصار، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية.

الزبيدي، محمّد مرتضى الحسيني. (1965). تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق جماعة من المختصين، الكويت: وزارة الإرشاد والأنباء والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري (ت أواسط القرن السادس الهجري/ القرن الثاني عشر ميلادي)، الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية .

الشملان، عبد الله خليفة. (٢٠١٢). صناعة الغوص. بيروت: وزارة الثقافة والتراث الوطني.

الغنيم، عبد الله يوسف. (١٩٧٣). الغوص على اللؤلؤ في المصادر العربية القديمة. بيروت: دار ذات السلاسل.

الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري. (١٩٨٧). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين.

فالح حنظل، (١٩٨٤). معجم الغوص واللؤلؤ في الخليج العربي. أبو ظبي: مؤسسة دار الفكر الجديدة.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي. (1409). مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق أسعد داغر، دار الهجرة للطباعة.

النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف. (١٤٠٨). تحرير ألفاظ التنبيه. تحقيق عبد الغني القدر، دمشق: دار القلم.

هبرة، مصطفى عزت. (٢٠٠٤). موسوعة الغوص واللؤلؤ في مجتمع الإمارات والخليج العربي قبل النفط، رأس الخيمة: مطبعة الإمارات.